

## الفصل الأول

(شخصية العقاد ، وشاعريته)

1 - العقاد الإنسان .

2 - العقاد الشاعر .



## العقاد الإنسان

ما زالت الحركة الفكرية والأدبية والنقدية في العصر الحديث تدين بالكثير للأديب والمفكر الراحل عبّاس محمود العقاد ؛ بما أعطاه ، وما يزال يعطيه ، رغم رحيله ، وبما أثاره ، وأثاره ، وحوّل الأنظار إليه .

وُلِدَ العقاد في مدينة أسوان ، بأقصى صعيد مصر ، ظهر يوم الجمعة ، الموافق الثامن والعشرين من شهر يونية ، سنة (1889م) ، وقد حظيت أسوان بتلالها الرملية ، وأشعة شمسها اللافحة بطفولته ، ورحلته الأولى مع الحياة ، ومن ثمّ أحبّها حبّاً شديداً ؛ لما أورثته من خصال ، كان لها أثرها الكبير في بنائه لشخصيته ، لذا نراه يمجدها دائماً ، فيقول فيها : " هي بلدة خالدة ! بل هي بلدة مخلدة ! لأن معالم الخلود في الهياكل والتماثيل مستعارة من محاجرها ؛ فهي كالزمن حين تهب الخالدين مادة الخلود .. تلك هي بلدي أسوان . لم تكن قط شيئاً هملاً في عصر من العصور .. " (1).

نعم ، أحبّ العقاد أسوان ، ولو كانت له من أمنيات في عالم الغيب لتمنى مطمئناً أن يُولد بها ، يقول : " ولدت فيها بمشينة القدر ، ولو أنني ملكت الأمر لولدت فيها بمشينتي ؛ لأنها الموطن الذي يُستفاد منه خير ما أثرته لنفسه من النظر إلى الحياة " (2).

وقد نشأ العقاد في أسرة متوسطة ، وكان أبوه محمود إبراهيم مصطفى العقاد ، مصرياً ، من محافظة دمياط ، وكان جده لأبيه يعمل بصناعة الحرير ، لذلك سُمّي العقاد ، يقول في ذلك :

" أمّا اسم (العقاد) ، فأذكر أن جدي لأبي كان من أبناء دمياط ، وكان يشتغل بصناعة الحرير ، ثمّ اقتضت مطالب العمل أن ينقل إلى المحلة الكبرى ؛ حتى يتخذها مركزاً لنشاطه ، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم (العقاد) ، أي الذي يعقد الحرير .. والتصقت بنا ، وأصبحت علماً علينا " (3).

(1) عبّاس محمود العقاد - أنا - دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - 1996م - ص34 .

(2) السابق - ص35 .

(3) السابق - ص25 .

لكن والد العقاد لظروف عمله نراه يعيش ويستقر بأسوان ؛ حيث كان يعمل أميناً للمحفوظات بإقليم أسوان .

وكان رجلاً شديد التدين ، كثير القراءة في الكتب الدينية ، يحافظ على أداء الصلوات الخمس بالمسجد ، بدءاً بالفجر ، وانتهاءً بالعشاء ، ومن ثمَّ فرض على ابنه الصغير إقامتها ، فيوقظه معه في الفجر ، ويصحبه للمسجد لأدائها ، ممَّا دعا الصغير إلى العصيان والتمرد ، لا لأجل الصلاة ، ولكن نزوعاً للتحرر من القيد ، ورفض النفس لما فرض عليها ، ولم تقبله بإرادتها . هذه هي الصورة التي رسمها العقاد لوالده ، صورة التدين والأمانة والنزاهة ، صورة من لا يحب المال ، صورة الجاد كل الجد ، يقول عنه العقاد :

" كان يدين بالجد في الواجب ، أو الشدة في الجد ، وكان يرى للطفل ما يراه للشيخ"<sup>(1)</sup> ، خاصة إذا كان الأمر فريضة واجبة ، أو عملاً محموداً ، أو عُرفاً ماثوراً ، يُستحب القيام به ؛ إعلاءً للقيمة ، وإبرازاً للمكانة المرجوة .

ومن ثمَّ كان حينما يرى العقاد جالساً بين أقاربهم وجيرانهم من النساء – يُنادي عليه ، ويُعاتبه على جلوسه بينهن ، ويحثه جاهداً على أن يجلس بين أقرانه وأمثاله ، ومن هم الأمثال الذين يتحدث عنهم ؟

إنهم شيوخ فوق الأربعين والسبعين ، على درجات متفاوتة من العلم والثقافة ، يجلسون مع أبيه ، يتحدثون في القضايا السياسية والاجتماعية وغيرها ، وقلماً يمرحون أو يتفكهون .

وقد كان لهذه الجلسات الفائدة الكبيرة على العقاد فيما بعد ؛ إذ أحسَّ بكيانه ، فكانه رجل ، وهو ما يزال طفلاً صغيراً ، يقول في ذلك : " وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تأتي من التوقر قبل سن الوقار"<sup>(2)</sup> .

ويؤكد العقاد على أن الفائدة الكبرى التي عادت على بنائه الفكري بالخير من تلك الجلسات – هي معرفته بالقاضي أحمد الجداوي ، وهو من علماء الأزهر الشريف الذين لازموا الشيخ جمال الدين الأفغاني ، وكان من زملاء الإمام محمد عبده في طلب العلم بالأزهر ، وقد أبعده الحكومة إلى أسوان ، وكان مجلسه مجلس علم وأدب<sup>(3)</sup> .

(1) السابق - ص 25 .

(2) السابق - ص 26 .

(3) راجع : السابق - ص 50 : 53 .

وهكذا ، فقد حرص والد العقاد على أن يجعله رجلاً منذ طفولته ، وكان لأبيه ما أراد ، فشبَّ رجلاً ، ورث عن أبيه خصالاً حميدة ، بقيت معه ، وصارت فيما بعد مكوناً من مكونات شخصيته .

ولم يكن هذا الوالد يغضب لشيءٍ قدر غضبه لكرامته ، وسمعة اسمه ، من ذلك أنه كان يمتلك حماراً ، ينتقل عليه من قرية لأخرى ، لَمَّا كان يعمل معاوناً للإدارة ، فلمَّا استقرَّ به الحال باعه ، وكان ذلك الحمار معروفاً بسرِّه وهونته ، فكان الناس يستعبرونه من ذلك الرجل الذي اشتراه ، قائلين له : (هات حمار العقاد) ، وما لبثت أن أصبحت : (هات العقاد) ، فانزعج والد العقاد ، وغضب لسمعته ، وسمعة اسمه ، وصمم على شراء الحمار من الرجل ، وقبيل المغالاة في ثمنه ؛ حفاظاً على سمعته .

لأجل هذا وذاك نراه معروفاً بين الناس بالوقار ، والأخلاق الفاضلة ، يقول عنه العقاد ، ذاكراً فضله :

" وجملة ما أذكره لذلك الأب الكريم أنني مدين له بالكثير ، وإنني لم أرث منه مالا يغنيني .. ولكن استفدت منه ما لا أقدره بمال " (1).

ولتكتمل تلك النشأة التي من الممكن أن توصف بالتدين ، نجد أن تدين الأب صنوه لدى الأم ، التي يرجع نسبها إلى أحد رجالات الأكراد ، وهو (عمر أغا) ، الذي " كان قائداً في جيش محمد علي ، الذي ذهب لفتح السودان ، وتأديب (نمر) ملك شندي ، الذي أحرق إسماعيل ابنه ومن معه في الحملة الأولى للسودان ، سنة (1821م) " (2)، فنكلوا بالملك الغادر شرّاً تنكيل ، وقتلوا من جنوده ما يقرب من عشرين ألفاً ؛ انتقاماً لإسماعيل .

وبعد فتح السودان عاد ذلك الجد ليستقر في أسوان ، وكان معه ابنه الأكبر (محمد أغا) ، والد والدته العقاد ، وكان رجلاً شديد التقوى ، يوصف بالقوة البدنية ، وقد ورث كل ذلك عن أبيه ، إضافة لأنفته ، واعتزازه بكرامته ، وقد ورثت والدته العقاد بدورها كل تلك الصفات عن جدها وأبيها (3).

(1) السابق - ص29 .

(2) عامر العقاد - لمحات من حياة العقاد المجهولة - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - 1968م - ص40 ، وراجع : أنا - ص30 : 33 .

(3) راجع : أنا - ص31 وما بعدها .

لذا كان العقاد منذ أبصر الحياة يراها تحافظ على الصلوات الخمس ، وتؤديها في أوقاتها ، على عكس عادة المرأة الشابة ، كما كانت تحسن تدبير كل شيء بالمنزل ، وكثيراً ما تصنع من المهمل شيئاً يُستعمل ، يقول العقاد : " ورأيت والدتي في عنقوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم وتطعم المساكين ، وقلما نرى نساء مصليات أو صانمات قبل الأربعين "(1).

وقد كان أديبنا يحب أمه حباً كبيراً ، وكان يقول لها : لو وجدت لي زوجة مثلك تزوجت الساعة ، وقد ورث عنها الكثير من الخصال ، يقول :

" ولقد ورثت منها كثيراً ، إلا القصد في النفقة ، وتدبير المال ، وحسبي بحمد الله ما ورثت عنها "(2).

نشأ العقاد هذه النشأة الدينية ، وهي ليست غريبة على تلك الآونة – بين أبوين شديدي التدين ، ممّا كان له الأثر الكبير على حياته فيما بعد .

وقد تلقى العقاد مبادئ القراءة والكتابة ، ومن ثم حفظ القرآن الكريم بكتّاب القرية ، حتى إذا بلغ السابعة من عمره ألحقه أبوه بمدرسة أسوان الابتدائية ، وكان لهذه المدرسة دور كبير في حياته الأدبية ؛ إذ أنمت لديه الموهبة الإنشائية ، أو كما يقول هو : " بدأت الكتابة بموضوعات الإنشاء في المدرسة "(3)، وكانت هذه الموضوعات تتسم غالباً بالمفاضلة بين شينين ، وبرع العقاد التلميذ فيما يكتب من مفاضلات ، وكان عادة يختار أضعف الجانبين ، وكان أستاذه الشيخ فخر الدين محمد يحمد اختياره ، ويعرض كراسة تلميذه النجيب على كبار زوار المدرسة ، ومن هؤلاء الإمام محمد عبده ، يقول العقاد :

" وكان لنا أستاذ فاضل (هو الشيخ فخر الدين محمد) ، يحمد هذا الاختيار ، على أن يكون من قبيل مرانة القلم ، ويعرض كراستي على كبار الزوار ، بين ما كان يعرضه من كراسات التلاميذ ، فلما زارنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذات مساء ، أراه الكراسة ، فنصفحها باسماً ، وناقشني في بعض مفاضلاتها ، ثم التفت إلى الأستاذ ، وقال ما أذكره بحروفه : ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعدُ .. "(4).

(1) السابق - ص 122 .

(2) السابق - ص 33 .

(3) السابق - ص 38 .

(4) السابق - ص 39 .

وقد كان العقاد مغرماً بالقراءة والاطلاع منذ حداثة ، فنراه يأخذ مصروفه وهو ذاهب إلى المدرسة ، لا يشتري به ما يشتريه أقرانه ، بل يشتري كتباً أو كتاباً ، وقد كانت الكتب تُباع في محل قريب من المدرسة ، وكان إذا وجد ثمن الكتاب أغلى ممّا معه ، نراه يعطي ثمنه لصاحب المحل على مراحل ، كلما تتوفر معه نقود !

وبهذه الطريقة قرأ العقاد العقد الفريد ، وغيره من أمهات الكتب ، وبها أيضاً كوّن مكتبة كبيرة ، وبها قرأ للشعراء الإنجليز ، وهو بالسنة الرابعة من المرحلة الابتدائية ، كما أتاحت له الوفود السياحية التي تأتي إلى أسوان فرصة إقامة الصداقات مع البعض منهم ، ومراسلتهم ، والتعرف على أدبهم ، خاصة الإنجليز منهم ، وهكذا أتاحت له فرصة إتقان اللغة الإنجليزية ، خاصة أن تدريس العلوم في المدارس آنذاك كان باللغة الإنجليزية ، ومن ثمّ ساعده ذلك على الاتصال منذ فترة مبكرة من حياته بالأدب الإنجليزي<sup>(1)</sup>.

وكان للعقاد طموحات كثيرة ، وكان يحلم بأن يكمل تعليمه ، لكنه ما إن أتمّ دراسته الابتدائية ، وحصل على شهادتها سنة (1903م) ، حتى رأى أبوه أن يلحقه بإحدى الوظائف الحكومية (الميري) ، ولم يجد العقاد مفراً من أن يطيع والده .

وقد أحبّ العقاد الكتب منذ حداثة سنه ، قراءة واطلاعاً<sup>(2)</sup>، وكان ذلك بدافع فطري ، وغنّته أشياء ثلاثة ، جعلته كاتباً ، وهي التشجيع ، والظروف ، والرغبة ، وهذه هي الأشياء الثلاثة التي يؤمن العقاد أنها جعلت منه كاتباً<sup>(3)</sup>.

ولاشكّ أن ظروف العقاد التي أحاطت به في صغره - كان لها الدور الأكبر في توجيهه وتيسير طريق نبوغه ؛ من حيث مجالسة أصدقاء والده ، وهم كما قلنا شيوخ فوق الأربعين والسبعين ، على درجات متفاوتة في سلم العلم والثقافة ، ثمّ ما كان يجري في هذه الجلسات ، من حديث ونقاش ، يأخذ منحاً كثيرة ، ومتعددة ، والعقاد في كل ذلك يستمع ، وينمو فكره ، ويتضح شخصيته ، شيئاً فشيئاً ، وقد أكد العقاد على فضل هذه الجلسات ، لكنه أكد أكثر على أن الفائدة الكبرى منها كانت في تعرفه على الشيخ أحمد الجداوي ، وقد تأثر به العقاد كثيراً ، دون غيره ممّن يجالسون والده ، وكان دائم الاعتراف بفضله ؛ فقد كان للشيخ الجداوي التأثير الكبير عليه ، وكان العقاد بدوره شديد الإعجاب به ، ويرى أنه واسع المعرفة ،

(1) راجع : السابق - ص 39 : 41 .

(2) راجع : السابق - ص 68 : 70 .

(3) راجع : السابق - 39 ، 57 ، 60 .

وكان يرى أنه أستاذه الوحيد الذي فُرض عليه ، فقبله بإرادته ، كما قبل كل أساتذته الذي اختارهم بنفسه ؛ متخذاً منهم القدوة والمثال ، وإن بقي للشيخ الجداوي أن مجالسه هي التي حَبَّبت الأدب لنفس العقاد ، فهوى حفظ الشعر ، ومطالعة كتب الأدب<sup>(1)</sup>.

وهكذا بدأ العقاد حياته الأدبية وهو في التاسعة من عمره ، وكان مدرس اللغة العربية قد طلب منه قصيدة في فضل العلوم ، يقول في ذلك :

" بدأت حياتي الأدبية وأنا في التاسعة من عمري ، وكانت أول قصيدة نظمتها في حياتي هي قصيدة مدح العلوم ، وقلت فيها :

علمُ الحسابِ له مزايا جَمَّةٌ      وبه يزيدُ المرءُ في العِرفانِ  
والنحو قنطرةُ العلومِ جميعها      ومبينُ غامضها وخيرُ لسانِ  
وكذلك الجغرافيا هاديةُ الفتى      لمسالكِ البلدانِ والوديانِ  
وإذا عرَفْتَ لسانَ قومٍ يا فتى      نلتَ الأمانَ بهِ وأيُّ أمانٍ<sup>(2)</sup>.

ولم يكن عدم إكمال التعليم عائقاً أمامه ، بل ربما كان دافعاً له ؛ لكي يصنع أشياء كثيرة ، فقد انتفع بالثقافة الذاتية ، والإطلاع الشخصي ، الذي انطلق مُتعمقاً في كافة العلوم الإنسانية ، بل إنه تعلم اللغة الإنجليزية وأجادها ، ممّا يسَّر له التعرف على آداب الغرب ، ومن ثمَّ يمكننا أن نقول باطمئنان إن ثقافته تعدُّ ثقافة موسوعية .

كل ذلك نبع من حبه للقراءة ، وحرصه على أن يثبت ذاته ، وتمرده على كل شيء يحول دون ذلك ، إضافة لما لاقاه من تشجيع ، منحه إياه كل من أدرك نبوغه ، واستعداده الفكري للتميز .

وقد عُرف عنه دائماً في جميع مراحل حياته اعتداده بنفسه ، حتى لتظنه لشدة ذلك متكبراً ، ولكنها الأنفة التي أورثتها إياه بينته منذ صغره ، حين كان يجلس وهو طفل صغير مع شيوخ فوق الأربعين ، فأحسَّ بكبره رغم حداثة سنه ، وربما ذلك ما يُفسَّرُ لنا ما يروى عنه ، ويعد من نواذر صباه ، أن صبياً سبَّ أباه ، فما كان من العقاد الصبي إلا أن أوسعه ضرباً ولكمًا ، فذهب ذلك الصبي يشكو لأمه ، فجاءت الأم تصحب ابنها الباكي إلى (أم عباس) تشكو ما فعله عباس بابنها ، وكان عباس حاضراً ، فبادر أم الصبي قائلاً : " هل سألت ابنك لماذا ضربته ؟ فأجابته :

(1) راجع : أنا - ص 71 وما بعدها .  
(2) أنا - ص 24 ، 53 ، وقد كتبت كلمة القافية "بيان" في ص 24 ، وكتبت "أمان" في ص 53 .

لأنه سبَّ أباك كما بلغني ممَّن شهدوا الضرب ، فلمَ لم تسبَّ أباه كما سبَّ أباك ؟ فردَّ عباس العقاد بزهو غاضباً ، وهل أبوه كأبي " (1) .

وانطلاقاً من هذا نستطيع أن نفسر ما كان يفعله في السابعة من عمره ، بالمرحلة الابتدائية ، حين رفض أن يلبس البنطلون القصير ، كبقية التلاميذ (2) ، أو حينما كان لا يجيب المدرس ، حين يُنادي عليه باسم (عَبَّاس حلمي) ، جرياً على تقاليد ذلك العهد ؛ حيث كان التلاميذ لا يُنادون بأسماء آبائهم ، بل يلقبون بالألقاب ، مثل : (صبري ، حلمي ، لطفي) ، ومن هنا كان العقاد من قليلين ينادون بأسمانهم (3) .

فقد كان إياؤه واعتداده بشخصيته ، بل وتمرده أحياناً وتحديّه – أبرز أسلحته التي دافع بها عن بقائه ومجده ، الذي مازال حياً كائنًا ، ومؤثراً إلى اليوم .

لكنه لم يعمل بالأدب والصحافة مباشرة ، بل إنه عمل ببعض الوظائف الحكومية ، لكن عمله بتلك الوظائف لم يثنه عن تطلعه لعالم الصحافة والأدب ، فبعد " وفاة أبيه سنة (1905م) اشتغل بعدة وظائف حكومية ، ولكنها لم تحل دون تطلعه إلى الصحافة ، وولعه بها " (4) ، فقد عمل بمصلحة الإيرادات بقنا ، ثم عمل بالقسم المالي بمديرية الشرقية ، يقول العقاد :

" ثمَّ جئت إلى القاهرة للكشف الطبي عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة ، عام (1904م) ، وكان عمري إذ ذاك 15 سنة ، وكانت وظيفتي قي مديرية قنا ، ولم تكن اللوائح تسمح بتسنييني ؛ لأنني لم أكن قد بلغت بعد سن الرشد ، ثمَّ نقلت إلى الزقازيق " (5) .

ولمَّا انتقل إلى الزقازيق عزم على إخراج صحيفة أسبوعية ، بعد أن عرف تكاليفها ، حين طبع قصيدة له ، ووزعها على أصدقائه ، وفيها يصور شوقه وحنينه لأسوان ، يعارض فيها قصيدة المعري ، التي يقول في مطلعها :

غللاني فإنَّ بيضَ الأمانى      فنيتُ والظلامَ ليسَ بفانٍ .

فقال في مطلع قصيدته ، وهي على وزن قصيدة المعري ورويها :

(1) لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص42 .

(2) راجع : أنا - ص97 .

(3) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص46 .

(4) عَبَّاس العقاد ناقدًا - ص93 .

(5) أنا - ص24 .

## ذُكراني نعيمها ذُكراني حبذا لو علمتما ما اعاني

وقال فيها في أسوان (لست أرجو عودة إلى أسوان) ، فطبع هذه القصيدة التي ضاعت ، ولم يبقَ منها إلا ما ذكرناه .

كما أنه أتخر من راتبه مبلغاً من المال ، وعزم على إخراج مجلة أسبوعية تحت اسم (رجع الصدى) ، لكنه تراجع عن عزمه ؛ لمّا رأى أن الصحافة الأسبوعية الصالحة تحتاج ، ولا تبقى إلا الفاسدة فقط<sup>(1)</sup>، ومن ثمّ حاول العمل بالصحافة اليومية ، يقول : " كنت أول من كتب بالصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين ، ثمّ سئمت وظائف الحكومة ، وجئت إلى القاهرة ، وعملت بالصحافة "<sup>(2)</sup>.

ففي سنة (1906م) استقال العقاد من وظيفته ، بعد أن ملّتها ، وضاق بقيودها ، وذهب إلى القاهرة<sup>(3)</sup>، فالتحق بمدسة الفنون والصنائع ، ثمّ تركها ليعمل بمصلحة البرق ، لكنه أحواله المادية تتعثر ، ممّا يجبره على العودة إلى أسوان ، تاركاً كتبه القيمة في الغرفة التي كان يستأجرها ، ولم يقدر على سداد إيجارها !!<sup>(4)</sup>.

لكنه يعود للقاهرة بعد فترة قصيرة ، يراوده حلم الكتابة والصحافة ، فُعرض عليه أن يعمل مترجماً بصحيفة اللواء ، فرفض ؛ لأنه يريد أن يكون كاتباً ، لا مترجماً ، كما أنه أبى العمل مع مصطفى كامل ؛ لأن محادثته الأولى معه لم تشجعه على أن يزامله في عمل دائم ، وأظهرته في صورة المعتد بنفسه ، الذي لا يسمح للفكاهة ، أو ما دونها أن تفتح باباً لتصحيح ما يقوله ، أو ما يراه صواباً .

وقد خرج العقاد بذلك الانطباع حينما كان يتبرع بالتدريس ، وذلك حين كان ينتظر الوظيفة الحكومية التي أرادها له والده ، ولمّا طال الانتظار تبرع بالتدريس في المدرسة الإسلامية الخيرية بأسوان ، بعد أن عرض عليه ناظرها ذلك ؛ لقطع

(1) راجع : عبّاس العقاد ناقداً - ص 94 .

(2) أنا - ص 24 .

(3) راجع : د. شوقي ضيف - مع العقاد - دار المعارف - القاهرة - سلسلة اقرأ - ع (259) - دت - ص 21 ، ويذكر الأستاذ عامر العقاد أنه سمع العقاد في أكثر من مناسبة يقول إن استقالته كانت سنة (1907م) ، قبل اشتغاله بالمستور مباشرة ، على إثر خلاف بينه وبين رئيسه على أسلوب الإفادات الحكومية التي حاول العقاد أن يجدد في قوايلها التركية العتيقة ، على حين أصرّ رئيسه على الحفاظ على الشكل الموروث . راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص 66 .

(4) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص 67 وما بعدها .

أوقات فراغه ، وذات يوم حضر مصطفى كامل ؛ ليتفقد المدرسة ، وكانت معه الكاتبة الفرنسية (مدام جوليت آدم) ، والكاتبة الإنجليزية (مسز يونج) ، وكانت الحصة حصة اللغة العربية التي كان يُدرّسها العقاد ، " فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :

والمرء ما لم تفذ نفعاً إقامته غيم حَمَى الشمس لم يُمطر ولم يسر .

وترجمه للسيدتين بطلاقة وإيقاع ، ثم طلب من التلاميذ أن يشرحوه ، ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ، ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ، والتفت مصطفى كامل إلى العقاد ، وإلى الأستاذ محمد شلبي مُتسانلاً ، فأدركه العقاد قائلاً : إن التلاميذ معذورون ؛ لأنهم في أسوان يعلمون أن الغيم الذي يظلل الرؤس شيء نافع ، لا يضربون المثل به لقلّة النفع به ، فلعله أنفع لهم من شعاع الشمس ، ومن المطر .

وعلى الرغم من حسن التخلّص الذي أبداه العقاد لمصطفى كامل ، وكان ينتظر منه أن يتقبله بالاستحسان والارتياح بوصفه خطيباً - فإن مصطفى كامل قد تجمّه وذوى وجهه ، وحينئذ عرف العقاد أن الاستدراك على مصطفى كامل - ولو من باب الفكاهة - أمر كثير على طاقته النفسية والفكرية <sup>(1)</sup> .

ثمّ قبل العقاد أن يعمل بعد ذلك كاتباً بصحيفة الدستور ، مع الأستاذ محمد فريد وجدي سنة (1907م) ، الذي وجد بينهما التقاءً فكرياً ، من حيث منهجية العمل ، وعرض القضايا ، ومناقشتها بروح علمية ، تكفل له الحرية الفكرية في طرح ما يروق له ، وقد شجّعه ذلك على أن يترك وظيفته الحكومية ، فقدم استقالته بديوان الزقازيق .

لكن ذلك الصفاء لم يدم طويلاً ؛ فقد ترك العقاد العمل بالصحيفة بعض الوقت ، وذلك على إثر خلاف بينه وبين وجدي ، حين أراد العقاد رثاء مصطفى كامل ، ناقداً مواقف السياسية تجاه الدولة العثمانية والخيوي ، وكان وجدي لا يريد ذلك ، فشبّ الخلاف بينهما ، وترك العقاد الصحيفة ، لكنه عاد إليها بعد ذلك ، يكتب بكل حرية ، دون أن يتدخل أحد فيما يكتبه ، وظلّ على هذه الحال ، حتى صدور آخر أعدادها ؛ فقد تعطلت ، ووقف صدورها ، سنة (1909م) ؛ بعد أن اضطّر صاحبها إلى تصفية حساباتها ، فباع مؤلفاته بأقل من أثمانها العادية ، ويودع وجدي العقاد ، أسفاً على التدايعات التي أدت لافتراقهما ، وهو يقول :

(1) عبّاس العقاد ناقداً - ص95 ، وراجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص59 وما بعدها .

" أرجو أن نتعاون معاً في عمل صحفي ، نحن أقدر عليه ، وأصلح له من الصحافة السياسية ، ويفترق العلامة الكبير والصحفي الناشئ الأديب ، بعد طول مصاحبة ، دامت العامين تقريباً " (1).

ونتيجة لذلك اضطر العقاد أن يبحث عن عمل آخر ، ولم تعجبه الصحف الموجودة آنذاك ، فقرر أن يبيع مكتبته ؛ كي يقات بثمن كتبها ، وتقلبت به الأحوال ، ووقع فريسة الإعياء ، ووهم التشخيص الخاطئ للطبيب ، الذي قال له : إنه مريض بالصدر ، لذا نراه يشد الرِّحال ، عائداً إلى أسوان ، وما يلبث أن يشفى من الإعياء ، ووهم المرض ، ويعود للقاهرة مرة أخرى ، ثم لا يرضيه الحال ، فيهرب من حرارة جوها إلى الإسكندرية ، وهناك يجد فرصة العمل بصحيفة (البيان) ، التي كان يصدرها عبدالرحمن البرقوقي ، وفيها التقى العقاد بهيكل ، والسباعي ، وعبّاس حافظ ، وطه حسين ، وإبراهيم المازني ، وعبدالرحمن شكري ، وغيرهم من حملة الأقلام في ذلك العصر .

كما تعرّف العقاد بـ (البيان) على المويلحي ، الذي اقترح عليه أن يوظفه بديوان الأوقاف ؛ ضمناً له من تقلبات الصحافة ، ومن ثمّ عمل بقلم السكرتاريا ، في وظيفة مساعد لكاتب المجلس الأعلى (2).

وتعرف العقاد خلال ذلك بحافظ عوض ، رئيس تحرير المؤيد ، الذي طلب منه أن يعمل معه ، فقبل العقاد القيام بتحرير الصفحة الأدبية ، لكنه ما لبث أن ترك العمل بها على إثر حادثة ، قام بها أحد محرري المؤيد ؛ إذ أخذ رشوة تحت ادّعاء أنه محرر الصفحة الأدبية ، فترك العمل بها ، وترك معها العمل بديوان الأوقاف ، ويصبح العقاد مرة أخرى بلا عمل ، ثمّ يتوسط بعد ذلك أحد أصدقائه ، فيجعله يعمل في أعمال المراجعة للصحف العربية ، بقلم المطبوعات .

واستمرّ العقاد بهذه الوظيفة فترة ، لكنها لم توافق هوى في نفسه ، فاستقال منها ، وعمل بعدها مدرساً بمدرسة وادي النيل الثانوية ، وواصل عمله كمدرس ، يرافقه المازني ، لكنهما سرعان ما تركا المدرسة ، بعد مشادة مع ناظرها ، حول مسألة تصحيح الإمتحانات .

ثمّ يعود بعدها للصحافة مرة أخرى ، فيعمل بصحيفة (الأهالي) ، وذلك سنة

(1) عامر العقاد - العقاد : معاركه في السياسة والأدب - دار الشعب - القاهرة - دبت - ص 41 .

(2) راجع : السابق - ص 44 وما بعدها .

(1917م) ، وفي تلك الفترة " تبدأ الدعوة الوطنية تظهر على يد الوفد المصري ، بقيادة سعد زغلول ، فيترك العقاد العمل بالأهالي ؛ ليغامر بقلمه وسط الثوار الأحرار ، بكل قوة وثبات "(1) ، وهنا تفتح صحيفة الأهرام بابها للعقاد (1919م) ، فيكتب فيها مجموعة كبيرة من مقالاته السياسية والأدبية .

ثم يشعر العقاد ببعض أمراضه تعاوده ، فيذهب ليداويه هواء أسوان ، وأثناء ذلك يجتهد المازني في إصدار تصريح بإصدار جريدة البلاغ ؛ لتكون لسان الوفد آنذاك ، ويأتي العقاد ليكتب فيها سنة (1923م) ، بعد انقطاعه للكتابة ؛ ليكون بذلك كاتب الوفد الأول ، لكن على إثر خلافه مع زعماء الوفد في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي انضم إلى معارضي الوفد ، وصار من ألمع كتاب هذه المعارضة .

وقد كان العقاد - فيما نعتقد ويرى كثيرون - صحفياً رائعاً ، قلمه معروف ، ومتميز بين الأعلام في عصره ، أسلوبه ساخر في مهاجمة أعدائه ، كما كان جباراً في منطقة ، ساخطاً في أسلوبه بمقالاته السياسية ، من ذلك ما كتبه في مقالة يندد فيها بما انتهجه محمد محمود باشا ، رئيس الوزراء ، وقد أعلن أنه " سيحكم البلاد بيد من حديد ، فنشر العقاد مقاله الساخر ، تحت عنوان (يد من حديد ، ولكن ذراع من جريد) ، وقد تداولته الألسن في كل مكان ، فلم يعد صاحب اليد الحديدية يردد هذه الكلمة ، كما أنه نشر عدة مقالات يشبه فيها إسماعيل صدقي باشا ، رئيس الوزراء في جبروته ، وسطوته بشارلي شابلن ، وقارن بينهما مقارنة طريفة "(2) ، وبالتالي كانت المصادر والإغلاق مصير كل تلك الصحف ، التي ينشر فيها العقاد مثل هذه المقالات .

والعقاد بهذا كان سياسياً ، رغم قلة ما قيل عنه في هذا الإطار ؛ فلقد " غلبت عليه صفة الأديب المفكر الفيلسوف ، على كونه سياسياً "(3) ، إضافة إلى أنه لم ينتم لحزب سياسي ، ومن ثم فهو سياسي - كما يُقال - مستقل ؛ وهو كما يؤكد العوضي الوكيل :

لم يكن " في يوم من الأيام حزبياً ، ولا انتمى لحزب من الأحزاب ، وفي ندوته سأله سائل يوماً عن ذلك ، فأجابته : أنه لم يكن عضواً في حزب من الأحزاب ، وكل ما هنالك أنه كان في وقت من الأوقات عضواً في الهيئة البرلمانية الوفدية ،

(1) السابق - ص 57 .

(2) راجع : السابق - ص 44 وما بعدها .

(3) شعر العقاد - ص 101 .

بحكم أنه كان عضواً في مجلس النواب ، وانتخب على مبادئ سعد ، وأنه وهو عضو في البرلمان قد أبدى آراء كثيرة ، مخالفة لآراء حزب الوفد ، لا تزال تحفظها مضابط البرلمان<sup>(1)</sup>.

وقد عُيِّنَ عضواً بمجلس الفنون والآداب ، كما عُيِّنَ بالمجمع اللغوي ، لكنه مع ذلك ، ومن أجل حبه للصحافة والأدب والكتابة - يرفض التقيد بوظيفة ؛ فقد رفض أن يعمل مديراً لدار الكتب ، كما رفض عمادة كلية الآداب ؛ حتى لا يشغل وقته بغير الكتابة والقراءة ، وحتى لا يكون موظفاً ، يتحكم فيه رئيس ، أو من هو أعلى منه !!

رفض العقاد التقيد بتلك الوظائف وغيرها ، وبقي مخلصاً لما يحب ، وظلَّ يبدع في مجالات عدة ، أدبية ، ونقدية ، وفكرية ، وفلسفية ، وغيرها ، إلى أن توفي في الثاني عشر من مارس سنة (1964م) ، عن خمسة وسبعين عاماً .

توفي العقاد دون أن يتزوج ، مع أنه أحب ثلاث مرات ؛ أحب الأدبية اللبنانية (مي زيادة)<sup>(2)</sup>، وأحب الفتاة الجميلة (اليس/ سارة)<sup>(3)</sup>، وأحب فتاة التمثيل السمراء (هنومة خليل)<sup>(4)</sup>، لكنه فشل في كل تجاربه ، وعند ذلك كره المرأة ، وهاجمها هجوماً عنيفاً ، ورأى أنها غير وافية ، طُبعت على الغدر ، وجُبلت على الخيانة ، يقول في ذلك :

حُبُّ الخداعِ طبيعةٌ فيها	حُلُّ الملامِ فليسَ يثبِتُها
ورِياضةٌ للنفسِ تحببُها	هو سترُها ، وطلاءُ زينتها
من يصطفِها أو يعاديها	وسلاحها فيما تكيدُ به
من طولِ ذلِّ باتِ يشقيها	وهو انتقامُ الضعيفِ ينقذُها
ما لم يردْه قضاءُ باريها	أنتِ الملوومُ إذا أردتِ لها
تخلصَ إلى أعلى غواليها <sup>(5)</sup> .	حُنتها ولا تخلصَ لها أبداً

ويقول :

(1) د. العوضي الوكيل - العقاد والتجديد في الشعر - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - دت - ص 63 .

(2) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص 185 : 230 .

(3) راجع : السابق - ص 230 : 247 .

(4) راجع : السابق - ص 248 : 261 .

(5) عباس محمود العقاد - أعاصير مغرب - دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - 1997م - ص 42 .

وفَاءُ بِنَاتِ حَوَاءٍ قِيوَدٌ      تُصَاغُ لِهِنَّ مِنْ طَبْعٍ وَغُرْفٍ  
فَمَا فِيهِنَّ مُخْلِصَةٌ لِأُخْرَى      وَمَا فِيهِنَّ مُخْلِصَةٌ لِإِلْفٍ  
تَطْبِغُ عَلَى اضْطِرَارِ كُلِّ أَنْثَى      وَلَا تَصْغِي لِعَهْدٍ أَوْ لِحَلْفٍ (1).

لكنتني أرى من ناحية أخرى أن تجارب الحب في حياة العقاد ، ونظرته للحب والمرأة - بعيدة كل البعد عن تفكيره في الزواج ، ومن ثمّ فمحاولاته التي فشل فيها في الحب لم تكن سبباً لعدم زواجه ، بل سبب ذلك هو ما ذكره العقاد نفسه ؛ فقد سئل عن سر عدم زواجه ، فقال : إنه " حين أراد الزواج لم يجد الوسيلة ، وحين توفرت الوسيلة انعدمت الإرادة ، فلم تجتمع لديه الوسيلة والإرادة معاً " (2).

وكان يقول : إنه " لا يكره الزواج ولا ياباه ؛ فهو سنة الحياة ، والطريق الطبيعي لقيام الأسرة ، ولكنه طبع على ألا يشاركه أحد في حياته ، ولا يطبق هذه المشاركة التي يراها عسيرة عليه ، وعلى من تريد أن تشاركه هذه الحياة ، إنني لا أريد أن أعذب امرأة معي ، ولا أريد أن تعذبني امرأة معها " (3).

توفي العقاد ، لكنه مازال يعيش بيننا بآثاره التي تخلده ، خاصة دواوينه العشرة التي لا يعرفها الكثيرون ، بل إن الكثيرين لا يعرفونه شاعراً ، مع أن العقاد نفسه كان يؤمن أن ما سيبقى هو شعره ، وما عداه فمن الممكن أن يُنقد ويُبَدَّل .  
ولا أجد ما أختم به حديثي عن العقاد الإنسان إلا كلماته التي يقول فيها عن نفسه ، وقيمته :

" وقبل أن تتحطم هذه الأوثان ، يظهر في هذا البلد مخلوق وأي مخلوق ، وقل إن شئت إنسان وأي إنسان ..

أديب مشهور ، وليس بليسانس ولا دكتور .

وعضو في مجلس الأعيان ، ليس في حوزته نصف فدان ..

وليس ببيك ولا باشا ، ولكنه يقول للبيك والباشا : كلا وحاشا ! ..

- 
- (1) عبّاس محمود العقاد - بعد الأعاصير - دار العودة - بيروت - لبنان - 1982م - ص 18 .  
(2) العقاد والتجديد في الشعر - ص 77 ، وراجع : أنيس منصور - في صالون العقاد ، كانت لنا أيام - الهيئة المصرية العامة للكتاب - إصدارات مكتبة الأسرة (مهرجان القراءة للجميع / الأعمال الفكرية) - 2006م - ص 428 : 444 ، ص 426 : 485 ، ص 611 : 629 .  
(3) العقاد والتجديد في الشعر - ص 78 .

وصاحب أعوان وأنصار ، وما هو بزعم حزب ، ولا بصاحب عصبية ، ولا مصطبة ، ولا دوار ..

وفقير جد فقير ، ولكن ليس بهين ولا حقير ..

وصاحب قلم مسموع الصرير ، مرهوب النفير ، ولكن ليس بصاحب صحيفة ولا بمدير ، ولا برئيس تحرير ، ولا سكرتير تحرير ..

يا حفيظ ..

شيء يجنن ..

ويزيد المغيظين من هذا (المقتمح المتهم) أن يهاجم (الأصلاء) ، فلا يبالي هجوماً عليه أو بباليه ، ولكنه بإصبع واحدة من إحدى يديه يردّه على عقبه ..

يا حفيظ .. شيء يجنن .. شيء يغیظ !

ولقد أراحنا الله من هذه الأوثان في عالم الرتب والنياشين ، وبقي الطقم الأخير من أوثان الألقاب والمظاهر في عالم (العلم) المحجوز على نمة المعاهد والدواوين ..<sup>(1)</sup>

هذا هو العقد في لمحة إنسانية عامة ، لكن لنا أن نتساءل عن أهم الصفات التي ميّزت شخصيته .

ومن ثمّ نقول إن هناك العديد من الصفات التي أعطت لشخصية العقد تفردها وتميزها بين غيرها من الشخصيات البارزة آنذاك<sup>(2)</sup>.

ولاشك أن الثبات والإصرار والصلابة من أهم تلك الصفات التي منحت شخصية العقد تفردها<sup>(3)</sup>، ولها الفضل الكبير فيما وصل إليه ؛ فقد صنعت منه شخصية قوية متماسكة ، تمتلك إرادة وعزيمة ، قادرة على العطاء ، صانعة للمستحيل ، دون خوف ، أو تردد ، طالما أن هناك ثمة أمل في الوصول إليه ، وتحقيقه ، ولاشك أن البيئة الأسوانية قادرة على أن تورث أبناءها مثل ذلك .

ثمّ تأتي صفة أخرى ، وهي العزلة والانطواء ، وهي صفة غالبية على طبيعة العقد منذ صغره ، يقول عنها :

(1) أنا - ص 103 وما بعدها .

(2) راجع : لمحات من حياة العقد المجهولة - ص 271 : 276 ، ص 315 : 341 .

(3) راجع : أنا - ص 18 : 20 ، ص 169 وما بعدها .

" ولقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي ، فلا أمل الوحدة ، وإن طالمت ، ولا أزال أقضي الأيام في بيتي على حدة ، حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات ، بل اللحظات ، ولكنني أشغل وحدتي بالقراءة والكتابة " (1).

ويقول العوضي الوكيل عن انطواء العقاد ووجدته :

" كان يبقى أحيانا في منزله أسبوعا ، لا يغادره ، ولم يكن يؤثر ذلك على لقاء أصدقائه وتلاميذه ، ذلك لأنه عاش بالكتابة وللكتابة ، وفرضت عليه ظروف حياته أن يعيش قارنا كاتباً ، ومن هنا كانت العزلة التي لا اختيار له فيها " (2)، وصارت ملازمة له ، حتى قبلها مختارا .

واللافت أن هذه الصفة ينذر ألا نراها كمكون أساسي في شخصية أحد المبدعين ، سواء في مجال الفكر أو الأدب .

ومن صفاته أيضاً التواضع والرحمة واللين ، وإن كان العقاد يقول عن ذلك :

" إنني لا أزعم أنني مفرط في التواضع .

ولكنني أعلم علم اليقين أنني لم أعامل إنساناً قط معاملة ، صغير أو كبير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أنني أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ، ولو لم تكن بيني وبينه صلة مكان ، أو زمان ، كما حاربت هتلر ، ونابليون ، وآخرين .

وأنا لا أزعم أنني مفرط في الرقة واللين .

ولكنني أعلم علم اليقين أنني أجازف بحياتي ، ولا أصبر على منظر مؤلم ، أو على شكاية ضعيف " (3).

ولكن تلامذة العقاد المقربين يشهدون بما أشار إليه أستاذهم ، وهما هي نعمات فؤاد تقول : إن العقاد " رجل مفرط في التواضع ، ورجل مفرط في الرحمة

---

(1) لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص18 ، وراجع : أنا - ص20 وما بعدها ، ص168 وما بعدها .

(2) العقاد والتجديد في الشعر - ص63 .

(3) أنا - ص16 وما بعدها ، وراجع حتى ص20 .

واللين ؛ ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ، ورجل لا يفلت لحظة في ليله ونهاره بين سلطان القلب والعاطفة" (1).

كما أن الفكاهة من أهم ما يميز شخصية العقاد ، وفكاهته لها سماتها التي ميزتها ؛ فهي " حاضرة على البديهة ، وهي تارة بلسم جراح ، وأخرى عدة من عدد الكفاح ، وهي تصلح لمساجلة الأصدقاء ، كما تصلح لمناجزة الأعداء" (2).

ومن مداعباته وتفككه مع الأستاذ توفيق الحكيم ، أن الحكيم عندما أخرج مسرحيته (يا طالع الشجرة) ، وهي من نوع اللامعقول ، وجد نفوراً كبيراً منها ، وقد صرّح العقاد ، وطه حسين بهذا النفور ، وعبر كل منهما بأسلوبه ؛ فد (طه حسين) رأيناه صريحاً مريراً ، بينما العقاد نراه يظهر عدم رضاه في صورة ، تحمل من المداعبة والممازجة الكثير ، يقول توفيق الحكيم :

" فأرسلت إلى العقاد الطبعة الثانية من كتاب كنت أعلم أنه يحبه ، هو كتاب (ذكريات الفن والقضاء) ، الذي ظهر في طبعته الثانية باسم (عدالة وفن) ، بعد أن زدت فيه فصولاً ، وكتبت له في الإهداء أداعبه بقولي : إني أرسل إليه كتاباً محبوباً لديه ، عوضاً عن الكتاب الآخر المكروه ، وهو (يا طالع الشجرة) ، فجاءتني منه هذه الرسالة القصيرة ، وقد أشار فيها إلى فصل في الكتاب (عدالة وفن) " (3) ، يقول العقاد في هذه الرسالة :

".... ولعلّ كراهة كتاب من كتبكم تهمة أجزى عليها بالتصنيف على حسابكم ، ولكن بغير السلاسل والحلاوة الطحينية" (4) ، ويقصد بذلك ما فعله الحكيم مع مجموعة من المساجين ، أتوا بهم إلى الحكيم ، وهو في المصيف برأس البر ، حينما كان وكيلًا للنيابة ، وهم في السلاسل ، وكانوا جانعين ، فأمر لهم بخبز ، وحلاوة طحينية على حسابه .

وهكذا فالعقاد كما تقول نعمات فؤاد : " رجل وسع شذقه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابلين" (5).

(1) د. نعمات أحمد فؤاد - الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد - دار المعارف - القاهرة - د.ت - ص 155 .

(2) عبّاس العقاد ناقداً - ص 183 .

(3) توفيق الحكيم - وثائق من كواليس الأدباء - كتاب اليوم (يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم) - ع [120] - فبراير (1977م) - ص 171 .

(4) السابق - ص 169 .

(5) الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد - ص 155 .

كما أن للعقاد مهابة ظاهرة ، تُجبر من يراه على احترامه ، وذلك يعني أن تلك المهابة لا تخفى على كل من ينظر إليه ، كما أنه لا يحاول أن يخفيها ، ولا يقدر على إخفائها إن أراد ؛ ذلك " لأن جذورها متمكنة في بنيته ، مهابة طبيعية ، ولدت معه ، وليست مصنوعة ، ومن ثم فإن مهابة العقاد لا تفارقه ، راضياً أو غاضباً ، فرحاً أو حزيناً ، جاداً أو متكلفاً ، مهابة كتب لها الدوام أينما حلّ ، وأينما ارتحل ، ومع الناس جميعاً في أطوار أعمارهم ، مهابة باحترامه والثقة فيه " (1).

كما أن للعقاد شخصية قادرة على تحمل الآلام ، بل ومحاربتها ، لدرجة أنه لا يستعمل أية مسكنات ، وإن أدى مرضه إلى إجراء عملية جراحية " فإنه يُجريها من غير استخدام للمسكن ، الذي يستخدمه كل إنسان ، وهو البنج " (2).

كما أنه متمرد ، يرفض الإذعان أو السيطرة عليه ، وهاهو المنوم المغناطيسي قد " استطاع أن ينوم كثيراً من الشخصيات ، ولكنه بآء بالفشل في تنويم العقاد " (3).

ومن خلانق العقاد أيضاً الحياء ، وهو سمة شخصية ، تدل على يقظة ضميره ، إضافة لكونه لديه " ينبع من الإحساس العارم في النفس بالقوة " (4).

كما أنه يتصف بالشجاعة ، ودليل ذلك أننا نراه دائماً " يجاهر بالصدق والعدل ، ويمقت الكذب والظلم ، ومن هنا فإنه قد وقف نفسه لنصرتها ، يدافع عنها دفاع المستميت ، ويجاهد ، في سبيلها جهاد الأبطال " (5).

والعقاد يمقت النفاق ، ولا يعرف التوسط في الصداقة أو العداة ، وهو القائل :

" لا أعرف إنساناً نصفه صديق ، ونصفه عدو ، وإنما أعرفه صديقاً مائة في المائة ، أو عدواً مائة في المائة ، ولا تهمني مع ذلك عداوته إذا حفظها لنفسه .. ولكنه إذا تعقبني بها ، وأبى إلا أن يكشف عنها ، فهي الحرب ، التي لا توسط فيها كذلك ، إمّا كاسر وإمّا مكسور ، إلا أن يريحي احتقاره من عناء هذا وذاك " (6).

(1) عبّاس العقاد ناقداً - ص 172 .

(2) السابق - ص 171 .

(3) السابق ، وراجع : أنا : ص 18 : 20 .

(4) السابق - 174 .

(5) السابق .

(6) أنا - ص 22 .

كما أن العقاد يتصف بالوفاء لأصدقائه من الأحياء والأموات ، ولذكرياته التي يعتز بها كل الاعتزاز ، وذلك ما حدا به إلى أن يرثي الكلب (بيجو) ، الذي لازمه عامين ، وأدرك جميل صفاته ، فكان صديقه الحميم ، فلما مات بقيت ذكراه عالقة بفؤاد العقاد ؛ حباً ، وتقديراً ووفاء<sup>(1)</sup> ، ولاشك أن صفة الوفاء مع ما مرّ من صفات ضرورة لازمة ؛ فمن الاستحالة بمكان لمن اتصف بما مضى ألا يكون وفيّاً .

كما أن العقاد يوصف بالجلم والتسامح ، ولا يبدأ بالعنوان أبداً ، فإذا هاجمه أحد فلا يرحمه ، وهو يقول عن نفسه : " ومن صفاتي التي لا يعرفها الناس ، أنني إذا عوملت بالتسامح لا أبداً بالعنوان ، وإذا هاجمني أحد فلا أرحمه " (2) .

والعقاد شخصية متمردة على القديم ، وقد برز هذا التمرد منذ رفضه أن يلبس البنطلون القصير ، وهو بالسنة الأولى بالمرحلة الابتدائية ، وتطور معه هذا التمرد ، ووصل إلى الأدب ، فثار على القديم ، ودعا للتجديد ، وأعلن حرباً لا هوادة فيها على القديم ، والمقلدين للقدماء ، كان له فيها ما كان ، وعليه ما عليه .

وهو - مع كل ما مضى - رجل يغلب الحزن عليه ، لدرجة أنه قد يؤدي به إلى - أحياناً - حالة من حالات اليأس ، لكنه اليأس الذي لا يمنعه من مباشرة الحياة ، بل وحب الحياة أيضاً .

هذا هو العقاد الإنسان ، وتلك - كما بدا لنا - أهم الخصال التي ميزت شخصيته على المستوى الإنساني .

---

(1) السابق - ص 23 ، وراجع : مقدمة قصيدة (بيجو) من : أعاصير معرب - ص 101 : 112 ، وراجع القصيدة - ص 113 : 115 .  
(2) أنا - ص 23 .

## العقاد الشاعر

لم يكن العقاد ذلك الكاتب الغز ، أو الباحث الدؤوب ، أو المفكر العميق ، أو المؤرخ ، أو الناقد ، صاحب النظريات والآراء النقدية ، التي كانت الأساس الذي قامت عليه مدرسة أدبية ، لها طرحها التجديدي ، ودورها في مسيرة أدبنا العربي في العصر الحديث ، وهي مدرسة الديوان ، لم يكن ذلك فحسب ، بل كان أيضاً شاعراً مُجَدِّداً ، له قيمته الشعرية ، وإنتاجه المتميز ، الذي يُمكنه من احتلال مكانة بارزة بين شعراء العربية في العصر الحديث .

وإنتاج العقاد الشعري ليس بالقليل الذي يخفى أو يهمل ، بل هو إنتاج ، له طرحة الفكري ، وتميزه الكيفي ، وكمه الكبير ، الذي وصل إلى عشرة دواوين ، هي كما يلي :

- 1 - يقظة الصُّباح ، وقد صدر سنة (1916م) .
- 2 - وهج الظهيرة ، وقد صدر سنة (1917م) .
- 3 - أشباح الأصيل ، وقد صدر سنة (1921م) .
- 4 - أشجان الليل ، وقد صدر سنة (1928م) .

وقد ضُمت الثلاثة الأولى إلى الديوان الرابع ، وصدر الجميع تحت عنوان (ديوان العقاد) ، سنة (1928م) ، مع مقدمة للأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني .

- 5 - وحي الأربعين ، وقد صدر سنة (1933م) .
- 6 - هدية الكروان ، وقد صدر سنة (1933م) .
- 7 - عابر سبيل ، وقد صدر سنة (1937م) .
- 8 - أعاصير مغرب ، وقد صدر سنة (1942م) .
- 9 - بعد الأعاصير ، وقد صدر سنة (1950م) .

ينضاف لذلك (ديوان من دواوين) ، وهو عبارة عن مختارات من الدواوين السابقة ، مع بعض القصائد الجديدة ، وقد صدر سنة (1958م) .

- 10 - ما بعد البعد ، وقد صدر سنة (1965م) ، أي بعد وفات العقاد .

وقد ظلَّ يقول الشعر حتى توفي سنة (1964م) ، ومع ذلك لم يُعرف بكونه شاعراً ، مع أنه نفسه - كما قلنا - كان يميل إلى أن يُعرف عنه أنه شاعر ؛ لأنه كان يدرك أن شعره هو ما سيبقى ، أمّا ما عداه فمن الممكن أن يُنقض ويتغير .

فلماذا لم يُعرف العقاد شاعراً ، ولماذا بَعَدَ الناس عن شعره ؟

في ذلك آراء كثيرة ، أهمها ، أن بعد الناس عن شعر العقاد يرجع إلى كونه شعراً ذهنياً ، مليئاً بالفكر ، مخاطباً للعقل ، خالياً من العاطفة والحيوية ، كما أن صاحبه كان يعتد بكل ما جادت به قريحته ، ممّا أدى لكثرة المقطوعات في دواوينه ، وكثرة العناوين ، التي لا رابط بينها وبين ما تحتها من أبيات ، إضافة إلى ما يُقال من أنه لم يحقق نقده على شعره<sup>(1)</sup>.

وذلك إن كان فيه بعض الصحة ، ففيه الكثير من المغالطات ، وإطلاق الأحكام العامة ، التي لا تستند إلى قراءة شاملة ودقيقة لشعر العقاد ، بل ربما اعتمدت على القراءة العابرة ، وغفلت عن مزج العقاد الرنان بين الفكر والوجدان ، وما وراءه من فلسفة رائعة ، وربما أن من أطلق تلك الأحكام " يخيل لهم ؛ نظراً لشهرته ككاتب وأديب وباحث ومفكر وفيلسوف - أن شعره ليس على درجة عظيمة من الشاعرية ؛ لأنه لا يتخصص للشعر ، وسبب آخر هو أن العقاد مجدد ، والمجدد دائماً يحتاج إلى وقت "<sup>(2)</sup>.

ولن أحاول هنا الرد تفصيلاً على ما وصل إليه بعض النقاد في تفسير سبب بُعْدِ الناس عن شعر العقاد ، لكنني سأكتفي بإيراد رأي الدكتور طه حسين ، في شعر العقاد<sup>(3)</sup>، يقول :

" أنا لا أومن في هذا العصر الحديث بشاعر عربي كما أومن بالعقاد ، تسألوني لماذا أومن بالعقاد في الشعر الحديث ، وأومن به وحده ؟

وجوابي يسير جداً ! لماذا ؟ لأنني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من

---

(1) راجع : د. عبدالواحد علام - دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات أخر - دار العدالة - القاهرة - 1991م - ص14 وما بعدها .

(2) عامر العقاد - مقدمة ديوان ما بعد البعد - دار العودة - بيروت - لبنان - 1982م - ص11 .

(3) كان ذلك في مسرح الأزيكية بالقاهرة ، مساء الجمعة 27 / 4 / 1934م ، في كلمة ألقاها الدكتور طه حسين ، بمناسبة تأليف العقاد للنشيد القومي ، وقد بايعه بإمارة الشعر بعد موت أحمد شوقي وحافظ إبراهيم .

الشعراء ؛ وإن شئتم فإنني لا أجد عند العقاد ما أجد عند غيره من الشعراء ؛ لأنني حين أسمع شعر العقاد ، أو حين أخلو إلى شعر العقاد ، فإنما أسمع نفسي ، أو أخلو إلى نفسي ، إنما أرى صورة قلبي ، وصورة قلب الجيل الذي نعيش فيه ، وحين أسمع لشعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربي الحديث ، إنما أرى شيئاً لا أراه عند غيره من الشعراء . تستطيعون أن تنظروا في أي ديوان من دواوين العقاد ، لا أطلب منكم أن تقرؤوا شعره الآن ، إنما انظروا الفهرست وحده ، فسترون من هذه النظرة اليسيرة في هذه الصفحات القليلة أن العقاد شيء آخر ، وأن شعر العقاد شيء آخر ، وأنه أرسل لي يتحدث إلى نفوسكم أحاديث لم يتحدث بها أحد من قبل "(1).

ثم يقول ، ناصحاً الأديباء والشعراء :

" صفوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولوا للأديباء والشعراء أسرعوا ، واستظلوا بهذا اللواء ؛ فقد رفعكم لكم صاحبه "(2).

وفيما قاله طه حسين أفضل ما يمكن أن يقال عن شاعر ، بل إنه ما من شاعر يحب أن يقال عنه أفضل من ذلك .

لكن العقاد - في رأينا - مع هذا وذاك يُعدُّ شاعراً من طراز خاص ؛ فقد غلبت عليه طوابع الرومانسيين ، من حب للذات ، وتفرد لها ، ممّا يوافق هوى في نفسه ، يضاف لذلك الحزن العميق ، والشكوى الدائمة ، والهروب من الواقع المؤلم لعالم الحلم ، والفرار للطبيعة ، أو الطفولة الباكرة ، وما دون ذلك من سمات تنفرد بها الرومانسية .

وانطلاقاً من تلك الرومانسية ، واستناداً لقراءة واعية لشعر العقاد ، نستطيع أن نحدد أهم الظواهر الرومانسية المسيطرة على شعره ، ألا وهي ظاهرة الحزن والأسى والشجي واللوعة ، وما ترتب عليها من تداعيات .

فممّا لا شكّ فيه أن ظاهرة الحزن تغلف شعر العقاد ، من أوله إلى آخره ، حتى في شعره الذي يبدو فيه مرحاً ، نراه ما يلبث أن يتحوّل بصورةٍ ما للحزن والشجي واللوعة !

(1) العقاد والتجديد في الشعر - ص 109 .

(2) السابق ، وراجع لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص 311 .

ومن ثمَّ فأول ما يلفت انتباهنا في شعر العقاد ، هو " تلك النعمة الحزينة البائسة التي توشك أن تلفة بعباءتها ، من أوله إلى آخره " (1).

ولن نتوقف كثيراً أمام الأسباب والدوافع التي تكمن وراء هذه الظاهرة ؛ لأنها ستبدو ضمناً من خلال رصدها ، ونشير إلى أنها ليست بالأمر الغريب على العقاد ، الذي نادى بأن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ، وتعبيراً عنه ، لذا استطاع " أن يقدم في ديوانه صورة صادقة لحياته ، التي غلب عليها القلق والحزن واليأس والضجر " (2).

وقد كانت حياة العقاد كفيلاً بأن تطبع شعره بهذا الطابع ؛ فقد لاقى الكثير من أعدائه ، والحائقين عليه ، وكذا ممن أحب ، كما مرَّ بالكثير من الأحداث والصراعات التي من شأنها أن تُسكن الحزن في قلبه ، وتجعله يحوم فوق سعائته ، فيحيلها رماداً ، بعد مرارة ولوعة ، ويُغلف شعره حتى يصبح ظاهرة الظواهر فيه .

والعقاد نفسه - باعتباره شاعراً - يدرك منذ البداية أن الشقاء قدر الشاعر ؛ نظراً للمفارقة الحتمية الكائنة بين ما يحلم به ، وبين ما يواجهه في واقعه ، يقول :

" والشاعر مكتوب عليه الشقاء ، ما دام مطبوعاً على مواهب الشعراء ؛ فهو حاد الخيال ، تصور له قريحته العالم حافلاً باللذة والنعيم ، مترعاً بالصفو ، ودواعي الهناء ، ممّا لا يصدقه الواقع ، وتريه الناس على صورة من خلوص الضمانر ، وصفاء السرائر ، وطهارة الأخلاق ، تبرهن المعاشرة على خلافها ، وهو لطيف الإحساس ، دقيق الشعور ، يوجعه ما لا يكاد يحسُّ به غيره .... " (3).

فإذا ما جننا لرصد هذه الظاهرة بصورة إجمالية في شعر العقاد - نراها واضحة منذ فترة مبكرة بديوانه الأول (يقظة الصَّبَاح) ، وقد غلغته بغلاف حزين ، يُطالعه كل من يتصفّحه .

ومن هنا نراه يُخاطب السعادة ، وكان بينه وبينها عداً كبيراً ، وخصاماً مريراً ، لن تكون بعده مصالحة أبداً ، قائلًا :

- 
- (1) دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات آخر - ص 16 .  
(2) السابق - ص 17 .  
(3) عباس محمود العقاد - خلاصة اليومية والشذور - دار الكتاب اللبناني - بيروت - لبنان - 1970م - ص 51 .

مَهْ يَا سَعَادَةَ عَنِّي	فَمَا أَنَا مِنْ رَجَالِكَ
لَا تَطْمَعِي الْيَوْمَ مِنِّي	بِالسَّعْيِ خَلْفَ خِيَالِكَ
فَقَدْ سَأَلْتُكَ حَتَّى	مَلَلْتُ طَوْلَ سَوَالِكَ
وَقَدْ جَهَلْتُكَ لَمَّا	سَحَرْتَنِي بِجَمَالِكَ
إِنَّ الْحَبِيبَ بَغِيضٌ	إِذَا اسْتَعْرَبَ بِخَالِكَ
فَلَا تَمُرِّي بِبِأَلِي	وَلَا أَمْرٌ بِبِأَلِكَ

ثم يُطلق حكمته البانسة ، التي إن دلت ، فإنما تدل على مدى حزنه ، وشقائه ، فيقول :

أَشْقَى الْأَنَامِ أَسِيرٌ مُعَلَّقٌ بِحَبَالِكَ (1).

ثم نراه يقول في أسى ولوعة ، ممزوجة بياس من أعياء فقد الأمل ، فصار شقياً ميتاً ، أعماه حزنه عن رؤية كل شيء ، سوى المعاناة والألم والشقاء ، يقول :

جَمَعْتُ شِقَاءَ الْعَيْشِ فِي ظِلْمَةِ الرَّدَى  
 فِيأَلِي مِنْ مَيِّتِ شَقِيّ الْخَوَاطِرِ  
 أَرَى الصَّبْحَ وَهَاجِبًا بِمَقْلَةٍ نَائِمٍ  
 وَيُلْحِظُهُ قَلْبِي بِحَسْرَةٍ سَاهِرِ  
 وَمَنْ لِي إِلَى هَذَا الْوَجُودِ بِلَمْحَةٍ  
 أَرَاهُ وَلَمْ يُغْمِ التُّرَابُ بِصَانِرِي  
 فَيَا قَلْبُ أَنْفِقْ مِنْ ضِيَانِكَ وَاحْتَسِبْ  
 لَدَى الشَّمْسِ لِأَلَاءِ الْوَجُوهِ النَّوَاضِرِ (2).

ونراه يركن إلى الظلام ، ويفضله على النور ، الذي لن يرى من خلاله إلا وجوهاً خداعة ، منافقة ، لا وجوهاً صادقة ، لذا يركن إلى الظلام ، ويُناغي أشجانه ، ويتسلى بإنشاد شعره ، فيقول :

وَلِهَذَا الظُّلَامُ خَيْرٌ مِنَ النُّورِ  
 هَاهُنَا أَطْلُقُ الْعَنَانَ لِأَشْجَا  
 رَ إِذَا كُنْتَ لَا تَرَى وَجْهَ حَرِّ  
 نِي وَأَبْكِي نَفْسِي وَأَنْشُدُ شِعْرِي (3).

(1) عبّاس محمود العقاد - يقظة الصُّباح - دار العودة - بيروت - لبنان - 1982م - ص16 وما بعدها .

(2) السابق - ص15 .

(3) السابق - ص18 .

ومن هنا نراه يُنادي دمه ، راجياً امتداد سكبه ؛ ليتابع أحزانه التي لا تنتهي ،  
مُشيراً في طيَّات ذلك إلى سببٍ ، يُعدُّ من أهم أسباب حزنه ، وهو الفشل في  
الحبِّ ، يقول :

يا غزيرَ الدموعِ ابنَ الدموعِ  
كَمْ تريدُ البُكََا وما تستطيعُ  
كيفَ سلوَاكِ والفؤَادُ بما يُسِنُ  
ليه في فاجعَاتِهِ مَفْجُوعُ  
لهفًا نفسِي عليكِ يَا قَلْبُ يَا بِي  
فِيكَ إِلَّا الكَمُونُ دَاءٌ وَجِيْعُ  
عَبْرَاتُ ، بَرَاءُ الجَوَى لو أُرِيقتُ  
وَسَمَامٌ حَتَّى تُرَاقَ نَقِيْعُ  
كَمِنْتَ فِيكَ ، لَا تَفِيضُ ، وَلَا تَبْرُ  
ذُ ، فَالصدرُ مِنْ شجَاهَا صَدِيْعُ  
لو جَرَّتْ في السُّحَابِ أَجْفَلُ أَوْ يَا  
زَمُ عَنْ سِبْحِهِ الفِضَاءُ الوَسِيْعُ  
نَضِبَ الدَمْعُ أَمْ مجاريهِ سُدَّتْ  
أَمْ فؤَادِي تَاموره مَقْطُوعُ  
كلما رَمَتْ في الجِوَانِحِ ماءً  
هَاجَ للنَّارِ بَيْنَهُنَّ سَطُوعُ  
مَنْ يَذُقُ غِصَّةَ الشَّرَابِ فما بِي  
غِصَّةٌ غَيْرَ أَنْ تَفِيضَ الدَمُوعُ  
إنَّمَا الحُزْنَ رِيضٌ ما اسْتَقَى الدَّمَ  
عِ وَأندى الأَحْزَانِ حُزْنٌ رَضِيْعُ  
يَحْرِقُ الجَمْرُ يابِسَ الحَطْبِ الجِزْ  
لُ ، وَيابِي الحَرِيْقُ لَدُنْ مَرِيْعُ  
فِيكَ يَا حُبُّ كُلِّ هَذَا ؟ فَبِعَدَا  
لَكَ دَاءٌ تَرِياقُهُ مَمْنُوعُ  
غَمْرَاتُ ، وَخُدْعَةٌ ، وَجَهَادُ  
وَسَهَادُ ، وَحَسْرَةٌ ، وَوَلُوعُ (1).

(1) السابق - ص 21.

وهكذا فظاهرة الحزن واضحة عند العقاد منذ ديوانه الأول ، وممّا يؤيد قولنا إحدى مراسلات العقاد لصديقه عبدالرحمن شكري ، في أيام الصفاء الأولى ، التي جمعت بينهما ، قبل الفرقة والاختلاف ، وذلك أثناء إقامة الأخير بالإسكندرية ، وقد غضب كل منهما " من الحياة والأحياء ، فراح يبتث شكواه ، ويفصح عمّا تضمه جوانحه ، من لوعة وأسى ، حتى يصل إلى بيت القصيد :

تالله لو علموا لكان مكاننا فيهم أعز ، وكيف علم المقتدي<sup>(1)</sup> .

وقد لازمت هذه الظاهرة العقاد في دواوينه الأخرى ، ولن نسترسل في الاستشهاد عليها ؛ لأنها تغلب بصورة لافتة على شعره ، لكننا سنكتفي باستشهادين آخرين ، من ديوانه الثاني (وهج الظهيرة) الصادر سنة (1917م) ، أي بعد عام من إصدار ديوانه الأول (يقظة الصبح/ 1916م) ، معتمدين فيما دون ذلك على ما سنذكره في فصول لاحقة ، من أشعار تؤيد ذلك بصورة ضمنية في دواوينه الأخرى .

الاستشهاد الأول ، من قصيدة (شباب مصر) ، وقد سُبقت بمقدمة نظرية ، تحدّث فيها العقاد عن شباب مصر ، وقال إن من بينهم توجد " فئة معروفة بنزعاتها الوخيمة ، وأخلاقها الذميمة ، ومجالسهم أضحوكة الأضحاك في خلوها من الجد ، وافتقارها من معني الرجولة والاحترام ، وهم يجتمعون ويتفرقون ، لا يحدو بعضهم إلى بعض حب وإخلاص ؛ لأن نفوسهم الوضيعة لا تُحب ولا تُحب ، ولكنها ضرورة الاجتماع ، ودفع السامة والنقمة ، تسوق كل منهم إلى مشاجرة من يكره ، ومعاشرة من يؤلمه سرورهم ، ويسره ألمهم ..... فما أعجبها من مجالس ، صلتها الكره ، لا الولاء ، ومحورها تبادل الوقيعة والإيذاء ، لا تبادل السرور والصفاء"<sup>(2)</sup> .

وقد عانى العقاد الكثير من معايشرة مثل هذه الفئات ، لذا نراه يقول في أنات حائرة :

كم ذا أعاشيرُ من صحبي وأعدائي  
مَنْ ليسَ يعقلُ أمالي وأراني  
قومٌ على كُتّيب مني ويفضلني

(1) دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات آخر - ص 17 ، وراجع : يقظة الصبح - ص 52 .

(2) عبّاس محمود العقاد - وهج الظهيرة - دار العودة - بيروت - لبنان - 1982م - ص 21 وما بعدها .

منهم مسافةٌ بين الليثِ والشَّاءِ  
لو كان يفرقنا بعدَ الطلابِ لما  
كنا وكانوا سوى نجمٍ وبوغَاءِ  
همُ الرجالُ كما قالوا وليس لهمُ  
من الرِّجولةِ إلا فضلُ أسماءِ  
لا كالرجالِ ، ولا كالغيدِ قد صغرتُ  
أكفهمُ من حُلَى بأسِ وحناءِ  
لو تستبينُ قذازاتِ النفوسِ لما  
مستهمُ الكفِّ إلا مسُ إيماءِ (1).

إن هذه القصيدة بما أوردناه منها تؤكد حالة الحزن ، وتوصل لبعض الأسباب التي أدت لسيطرتها على العقاد ، ومن ثم يأتي الاستشهاد الثاني من قصيدة (الدنيا الميتة) ؛ ليؤكد على تلك الحالة بصورة صريحة :

عزيري وهل للناقمين عزيرُ  
وأين لمخذولِ الفؤادِ نصيرُ  
لقد ماتت الدنيا ، وقدما رأيتها  
عروساً حفافيتها عرائسُ نورُ  
نعم ماتت الدنيا بنفسي ومن يعيشُ  
وقد ماتت الدنيا فأين يصيرُ

وانطلاقاً من ذلك يصل العقاد إلى قوله الذي قطع كل شك في ذهاب حزن ذلك الملتاع ، فيقول :

نعم ماتت الدنيا بنفسي فهل لها  
بعطفك من بعدِ المماتِ نشورُ (2).

ولأن هذه الظاهرة من أهم الظواهر في شعر العقاد ، فقد ترتب عليها كنتيجة منطقية بعض الظواهر الفرعية الأخرى ، مثل اعتداد العقاد بنفسه ، فنراه يقول :

إني لأصغرُ أرضاً ليسَ يعمرها  
من الخلائقِ أندادي وأمثالي (3).

(1) السابق - ص 23 .

(2) السابق - ص 37 وما بعدها .

(3) يقظة الصُّباح - ص 11 .

كما رأيناه يصحب هذا الاعتداد معه بعد الممات ، فيقول :

إِذَا شِيعُونِي يَوْمَ تَقْضَى مَنِّي  
وَقَالُوا أَرَأَى اللَّهُ ذَاكَ الْمُعْتَبَا  
فَلَا تَحْمِلُونِي صَامِتِينَ إِلَى التُّرَى  
فَبَنِي أَخَافُ اللَّحْدَ أَنْ يَتَهَيَّبَا<sup>(1)</sup>.

كما تفرَّع عنها أيضاً انطواء العقاد ، بعد يأسه من معاشرة بني الأحياء الخادعين ، حتى صار إلى عزلة واغتراب دائم ، يقول :

أنا الغريبُ ولي بينَ الوري رَجَمٌ بِالرَّغْمِ مِنِّي وَأَصْحَابٌ وَجِيرَانُ<sup>(2)</sup>.

وهكذا - كما قلنا - نجد ظاهرة الحزن تغلف شعر العقاد كله ، وقد كان لذلك ما يفسِّره ؛ فقد لاقى في حياته الكثير من العداء والحنق والغش والخداع ، خاصة من المرأة التي أحبها ، وفشل في كل تجاربه معها .

ومن ثمَّ فتلك الظاهرة التي تغلف شعره لم تأت من فراغ ، أو وليدة إبداع الخيال الشعري ، بل إنها - كما قلنا أيضاً - من واقع حياته ، التي مُلِئَتْ بالألام والمحن ، فانعكست واضحة على شعره وغلفته .

وعلى عادة الرومانسيين عندما يجابهون بالواقع المرير ، ويعانون أوباء نفوس البشر ، نرى العقاد يهرب من عالم الأحياء ، ويلوذ بالطبيعة أحياناً ، أو يتمنى العودة للطفولة الباكرة أحياناً أخرى ؛ تسلياً عن آلامه ؛ لما في الطبيعة والطفولة من طهر ونقاء .

ولعلَّ قصيدة (المزمارة) فيها الدلالة الكبرى على تمني الرجوع للطفولة ، واللجوء إلى الطبيعة ، يقول :

أيها المُسْتَعِيدُ صَوْتًا شَجِيًّا  
حَسْبَ هَذَا الْفَوَادِ رَجْعُ حَنِينِهِ  
نَفَثَاتُ الْمَزْمَارِ تَذْكِي أَوَارًا  
رَابِنِي طَوْلُ بَرْدِهِ وَسُكُونِهِ  
وَمَا كَانَ الْمَزْمَارُ يَذْكَرُ عَنْهُدَا

(1) السابق - ص 41 .

(2) السابق - ص 32 .

كَانَ هَمْسُ الصَّبَا نَجِي غُصُونِهِ  
 عُلْمُوهُ ، وَمَا بِهِ مِنْ غَرَامٍ ،  
 أَنَّةَ الْوَجْدِ صَفْوَهُ وَحَزِينَهُ  
 أَيْنَ مِنْ زَفْرَةِ الْمُحِبِّ نَسِيمٌ  
 طَالَمَا هَزَّ مَهْدَهُ بِيَمِينِهِ  
 كَانَ هَذَا الْهَوَاءُ طَلْقًا فَلَمَّا  
 حَبَسُوهُ أَبْكَى بَيْتًا أُنِينَهُ  
 أَيْقِظَ النَّفْسَ وَالْخَوَاطِرَ وَسْتَنِي  
 فَنَرَا كُلَّ خَاطِرٍ مِنْ كَمِينِهِ  
 أَنَا وَالرَّيْحُ مُنْشِدَانِ كِلَانَا  
 يَطْرِبُ النَّاسُ مِنْ خِلَالِ سَجُونِهِ<sup>(1)</sup> .

وهكذا كانت ظاهرة الحزن ، فإذا ما جننا لتحديد أهم الظواهر الأسلوبية في شعر العقاد ، سنجد أن الظاهرة الأوضح أسلوبياً هي لجوء شاعرنا إلى المقابلات ، التي قد تقف عند حد الطباق بين لفظين ، وقد تمتد إلى أكثر من ذلك ، وقد تصبح مفارقة ، تلفت القصيدة ، وتشطر مضمونها إلى تقيضين متصارعين ، يظهر من خلالهما الإنتاج الدلالي العام بالقصيدة<sup>(2)</sup> .

وإذا كنا قد فسرنا - فيما نرى - ظاهرة الحزن في شعر العقاد ، وهي تخص المضمون ، فلنا أن نلتمس تفسيراً يرضينا - على الأقل - لهذه الظاهرة الأسلوبية ، ومن ثم نرى أن التعبير بها يُعدّ إظهاراً لنفس قلقة ، حائرة ، يسيطر عليها الاضطراب ، ولا تكاد تستقر على حال واحد ، إضافة لكونها تعبيراً عن موقف خاص ، تجاه كون يمتلئ بالمتناقضات ، وحياة لا تخلو ساعة من الصراعات .

ولاشك أن اعتماد العقاد لهذه الظاهرة الأسلوبية قد أعانه " على التعبير عن تلك الحالات ، تعبيراً اتسم بالصدق الفني والشعوري في معظم الأحيان ، كما أنه قد وجد فيه عوضاً عن الاعتماد اعتماداً كبيراً على الصورة الشعرية بأنماطها المجازية المعروفة"<sup>(3)</sup> .

ومن يتصفح شعر العقاد يجده يعتمد اعتماداً كبيراً على المقابلات ، خاصة في

(1) السابق - ص 52 .

(2) راجع : دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات آخر - ص 54 وما بعدها .

(3) السابق - ص 55 .

تناوله للمضامين الشعرية الأثيرة لديه ، وهي الحزن والألم والمعاناة ، وما ينضوي تحتها من مترادفات .

ومن يتأمل تلك المقابلات يجدها تمثل لبنة أساسية من لبنات سياق قصيدتها ، ولم تكن لعباً بالألفاظ ، ولا لهواً بالمتضادات ، بل جاءت لترسم صوراً نفسية<sup>(1)</sup>، تلتحم ببنية القصيدة ، النحام الجزء بالكل ؛ ليظهر الخطاب الشعري في صورة جلية واضحة ، ربما - وحدها - المقابلة هي ما تسعف في إظهارها بهذا الأداء المؤكد - في محتواه - لبنية القصيدة الدلالية .

ومن صور المقابلة الممتدة في جسد القصيدة ، قول العقاد في قصيدة (حظ الشعراء) :

ملوك ، فأما حالهم فعيبد  
وطير ، ولكن الجدود قعود  
أقاموا على متن السحاب فارضهم  
بعيد ، وأقطار السماء بعيد !  
مجائين تاهوا في البلاد فودعوا  
رواحة هذا العيش وهو رغيد  
وما ساء حظ الحالمين لو أنهم  
تدوم لهم أحلامهم وتجود  
فوارحمتا للظالمين نفوسهم  
وما أنصفتهم صخبته وجدود  
ويذرون من مس العذاب دموعهم  
فينظّم منها جوهراً وعقود  
بني الأرض كم من شاعر في دياركم  
غيب ، وغبن الشعاعين شديد  
بني الأرض أولى بالحياة جميلة  
محب عليها من حلاه نضود  
محب تناجيه بأسرار قلبها  
ومهما ترد في العيش فهو يريد  
على أنه قد يبلغ السؤل خاطب

(1) راجع : السابق - ص 55 .

خَلِي وَيَزْوَى عَنْ هَوَاهُ عَمِيدًا<sup>(1)</sup>.

هذا جزء من القصيدة ، ومن يتأملها كاملة ، يجد المقابلة تمتد لنهايتها ، جاعلة إياها على نصفين متقابلين دلاليًا ؛ ليظهر العقاد من خلالها حال الشعراء ومعاناتهم في مقابل غيرهم .

ومن نماذج المقابلة أيضاً نورد المثال التالي ، وهو من قصيدة (عَمَّ صباحاً ، عَمَّ مساءً) ، وفيها يصور العقاد الحياة وقد اختلطت فيها الأشياء اختلاطاً عجيباً ، حتى صارت للعبثية أقرب ، يقول :

عَمَّ صباحاً ، عَمَّ مساءً	ذهب العمر هبَاءً
أقبل الصبح ... وولئى	ومضى الليل وجبَاءً
وأخذنا ورددنا	فحكى الأخذ العطاء
ولقينا أصدقاء	وفقدنا أصدقاء
فشقينا بولاء	وتملينا عداً
وعشقنا وتركنا	حُبَّ مَنْ سَرَّ وسَاءً
مَنْ عشقناه وَمَنْ لَمْ	نره قطُّ سِوَاءً
وعرفنا الحقَّ أحياً	نا فلم نعرفنا هِنَاءً
وجهلنا الحقَّ أحياً	نا فلم نجهلنا شِقَاءً
وقتلنا الجسمَ والرؤ	ح سقاماً وشِقَاءً
ثم نمضي حيثما نم	ضي سراعاً أو بطأً
لم نزد في الأرض من	لوعاً ولم ننقص فضاءً
عَمَّ صباحاً يا زماني	يا زماني عَمَّ مساءً <sup>(2)</sup> .

وهكذا تحدثنا بصورة إجمالية عن شعر العقاد ، فعرفنا به ، وأظهرنا أنه يتميز بظاهرتين بارزتين إلى حد بعيد ؛ الأولى تخص المضمون ، وهي الحزن و مترادفاته ، والثانية تخص الأسلوب ، وهي المقابلة .

غير أن هناك ملاحظة أخيرة ، جديرة بالتقيد ، ألا وهي عناية العقاد بالفكرة ، تلك العناية التي اضطرته كثيراً إلى دعمها بمقدمة نثرية ، قبل بدء النص الشعري ، بصورة تجعلنا منذ البداية نولي اهتمامنا بفكرة معينة ، يوجه العقاد أنظارنا إليها ، ويضعها في بؤرة اهتمامنا .

(1) بقطة الصباح - ص 70 وما بعدها .

(2) ديوان العقاد - م 1 - ص 406 وما بعدها .

وأخيراً ، إذا كان طه حسين قد أثنى على شعر العقاد ، ومنحه إمارة الشعر ، فلنا في ختام ذلك أن نذكر كلمة لعامر العقاد ، في تقديمه لديوان (ما بعد العبد) ، الذي نُشر بعد وفاة العقاد ، يقول :

" وليس أدل على تقدير الأدب لأستاذنا من اختياره مقررًا للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، منذ إنشائه ، وما أبلاه من خدمات جلييلة في ميدان الشعر والأدب ، ومهرجانات الشعر ، وإصدار التقاويم الشعرية ، ونشر دواوين الشعراء ، والكتب التي ضمت البحوث التي ألقيت في المهرجانات ، ومشاركته بنفسه - برغم حالته الصحية - في معظم المهرجانات ، واحتفاء الأبناء به ، من مختلف البلاد والأقطار ، في حفلات المهرجانات الشعرية " (1).

هذا هو عبّاس محمود العقاد الشاعر ، لكن ممّا يجدر الإشارة إليه ، إضافة للجانب الشعري ، ودواوينه العشرة ، هو أنه ألّف عدداً كبيراً من الكتب ، أربت على المائة كتاب ، إضافة إلى مقالاته العديدة ، المتناثرة في بطون الصحف والدوريات ، كلها في موضوعات شتى ، تجمع ما بين الفلسفة ، والفكر ، والأدب ، والنقد ، والاجتماع ، والسياسة ، والبحوث الحضارية ، والجمالية ، وما يتصل بالفنون ، والقصاص ، والتراجم الأدبية ، والتاريخية ، والتعريب عن اللغة الإنجليزية (2).

وفي سنة (1960م) منّح العقاد جائزة الدولة التقديرية في الآداب ، وآخر كتاب صدر له في حياته هو كتاب (جوائز الأدب العالمي ، صدر (1964م) ، أمّا مقالاته في المجلات ، وفي طليعتها (الرسالة ، والهلال) قلم تنقطع ، وكان قد نظم في منزله ندوة أدبية أسبوعية ، تعقد كل يوم جمعة ، استمرت حتى وفاته ، وقد ألقى فيها بعدد كبير من الكتاب المصريين والعرب (3).

(1) عامر العقاد - مقدمة ديوان (ما بعد العبد) - ص 11 .

(2) راجع في هذا الإطار الدراسة البيوجرافية النقدية البيبلوجرافية التي أعدها الدكتور حمدي المسكوت ، عن العقاد ، ضمن السلسلة البيوجرافية النقدية البيبلوجرافية الخاصة بأعلام الأدب المعاصر في مصر ؛ وهي دراسة في مجلدين ، بصفحات هي 1157 صفحة ، ليس فيها إلا عناوين الكتب والمقالات : أعلام الأدب المعاصر في مصر (5) (عباس محمود العقاد) ، سلسلة بيوجرافية نقدية بيبلوجرافية - مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ودار الكتاب المصري - القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني - بيروت - ط 1 - 1983م - 1م ، 2م .

(3) راجع : مع العقاد - ص 12 وما بعدها .